﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ [هود: 78 - 80]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

تَكميلُ ما ابتدَأَتْهُ القِصَّةُ وتتميمُ بيانِ ما حدَثَ

لمّا قصَّتِ الآيةُ السّابقةُ خبرَ وصولِ الملائكةِ إلى بيتِ لوطٍ عليه السلام وما اعتراهُ من غمٍّ وهمٍّ خوفًا على هؤلاءِ الضِّيوفِ من فجورِ أهلِ قريتِه، ولم يكنْ عليه السلام يعلمُ بعدُ أنَّهم رسلُ اللهِ ﷻ انتقل السِّياقُ إلى بيانِ وقوعِ المحذورِ الَّذي كان يَحْذرُهُ لوطٌ عليه السلام فقد هَرْولَ قومُهُ إلى بيتِه مستبشرينَ بالظَّفرِ بهؤلاءِ الشَّبابِ الضُّيوفِ، إلى أن أفصحَ الملائكةُ عن أنفسِهم، وبشَّروهُ بنجاتِه وأهلِه، وهلاكِ قومِه وامرأتِه، فالمناسبةُ بين الآياتِ مناسبةُ تتميمٍ وتكميلٍ للحدثِ، وبيانِ صِدْقِ ما توقَّعَهُ عليه السلام.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُهۡرَعُونَ﴾: "وهي الرِّعدَةُ؛ إذا ذهبَتْ عقولُهم منَ الخوفِ والفَزَعِ إهراعًا"[1]، و"هَرِعَ وأهْرَعَ: ساقَهُ سوقًا بِعُنْفٍ وتخويفٍ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ [هود: 78]، وهَرَعَ بِرُمْحِهِ فَتَهَرَّعَ؛ إذا أشْرَعَهُ سَريعًا، والهَرِعُ: السَّريعُ المشي والبكاءِ"[2].

"وأُهْرِعَ الرَّجُلُ، عَلَى ما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ: خَفَّ، وأُزْعِدَ منْ سُرْعةٍ أو خوْفٍ أو حِرْصٍ أو غَضَبٍ أو حُمَّى، وفِي التَّنْزِيلِ: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ

(1) ابن السكيت، كتاب الألفاظ: (هرع).
(2) الراغب، المفردات: (هرع).

﴿يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ [هود: 78]، قالَ أبو عُبَيْدَةَ: يُسْتَحَثُّون إليه، كأنَّهُ يَحُثُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وتَهَرَّعَ إليهِ: عَجِلَ"[1]، و"المَهْروعُ: المَجْنونُ يُصْرَعُ، والمَصْروعُ من الجَهْدِ... وأهْرَعَ: أسْرَعَ"[2].

2) ﴿تُخۡزُونِ﴾: "خَزِيَ الرَّجُلُ: لَحِقَهُ انكسارٌ، إمّا من نَفْسِهِ، وإمّا من غيرِهِ، فالَّذي يَلْحَقُهُ من نفسهِ هو الحياءُ المُفْرِطُ، ومصدره الخَزايَةُ، ورجلٌ خَزْيانُ، وامرأةٌ خَزْيَى، وجمعُهُ: خَزايا، وفي الحديث: «اللهمَّ احشُرْنا غيرَ خزايا ولا نادمينَ». والَّذي يلحقهُ من غيرِهِ يقال: هو ضرْبٌ من الاستخفافِ، ومصدرهُ الخِزْيُ... وقال: ﴿وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾ [هود: 78]. ومتى كانَ من الإنسان نفسِهِ يقالُ لهُ: الهونُ والذُّلُّ، ويكونُ محمودًا، ومتى كان من غيرِهِ؛ يقالُ له: الهُونُ، والهوانُ، والذُّلُّ، ويكونُ مذمومًا"[3].

و"أخْزَيْتُهُ؛ أي: فَضَحْتُهُ، ومنْهُ قَوْلُهُ تعالى حِكايَةً عَنْ لُوطٍ لِقَوْمِهِ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾؛ أي: لا تَفْضَحُونِ، وقالَ في قَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾: الخِزْيُ الفَضيحةُ، وقَدْ خَزِيَ يَخْزَى خِزْيًا؛ إذا افْتَضَحَ، وتَحيَّر فَضيحَةً"[4].

3) ﴿قُوَّةً﴾: "القوَّةُ أصلُها التَّعاونُ، ومنه قُوى الحَبْلِ؛ لأنَّ كلَّ واحدةٍ منها تُعِينُ الأخرى، وكلُّ طاقةٍ من الحبْلِ قوَّةٌ، واستعمالُها في صفاتِ اللهِ تعالى بمعنى أنَّ أحدًا لا يغلبُهُ، وليس معناهُ التَّعاونَ، كما أنَّ أصْلَ التَّوبةِ في اللُّغةِ الرُّجوعُ، تابَ يتوبُ؛ إذا رجعَ، وكذلكَ تائِبونَ، وقولنا: إنَّ اللهَ تَوّابٌ ليس يُعْنَى بهِ الرُّجوعَ... والقوَّةُ في القرآنِ على خمسةِ أوجهٍ: الأوَّلُ: العُدَّةُ، قال: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود: 52]... الثاني: الجِدُّ، قال اللهُ: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [البقرة: 63]... الثالثُ: البَطْشُ، قال اللهُ: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصلت: 15]... الرّابعُ: السِّلاحُ، وهو راجعٌ إلى معنى، العُدَّةِ قال اللهُ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: 60]... الخامس: الشِّدَّةُ، قال اللهُ: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ [القصص: 76]"[5].

4) ﴿ءَاوِيَ﴾: "المَأْوى مصدرُ أوى يَأْوِي أوِيًّا ومَأْوًى، تقول: أوى إلى كذا: انضمَّ إليهِ، يأوي أويًّا ومأوى، وآواهُ غيرُهُ يُؤْوِيهِ إيواءً، قال ﷻ: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ [الكهف: 10]،

(1) ابن منظور، لسان العرب: (هرع).
(2) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (هرع).
(3) الراغب، المفردات: (خزي).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (خزي).
(5) العسكري، الوجوه والنظائر: (القوة).

وقال: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ [هود: 43]، وقال تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ [يوسف: 69]، وقال: ﴿وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ﴾ [الأحزاب: 51]"[1].

5) ﴿رُكۡنٍ﴾: "رَكِنَ إِلَى الشَّيءِ ورَكَنَ يَرْكَنُ ويَرْكُنُ رَكْنًا ورُكونًا فِيهِما ورَكانَةً ورَكانِيَةً؛ أي: مالَ إِلَيْهِ، وسَكَنَ... وفي التَّنْزِيلِ العَزِيزِ: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [هود: 113]... ورُكْنُ الشَّيْءِ: جانِبُهُ الأقوى، والرُّكْنُ: النّاحِيَةُ القَوِيَّةُ وما تَقَوَّى بِهِ مِنْ مَلِكٍ وجُنْدٍ وغَيْرِهِ، وبِذَلِكَ فُسِّرَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾ [الذاريات: 39]، ودَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ [الذاريات: 40]؛ أي: أخذْناهُ ورُكْنَه الَّذِي تَولَّى بِهِ، والجَمْعُ: أرْكانٌ وأرْكُنٌ... ورُكْنُ الإنسانِ: قُوَّتُهُ وشِدَّتُهُ... ورُكْنُ الرَّجُلِ: قَوْمُهُ وعَدَدُه ومادَّتُهُ، وفي التَّنْزِيلِ العَزِيزِ: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٍ شَدِيدٍ﴾... ويُقالُ لِلرَّجُلِ الكَثِيرِ العَدَدِ: إنَّهُ لَيأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وفُلانٌ رُكْنٌ مِنْ أركان قَوْمِه؛ أي: شَرِيفٌ مِنْ أشرافهم، وهُو يأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ؛ أي: عِزٍّ ومَنَعةٍ، وفي الحَدِيثِ أنَّه قالَ: «رَحِمَ اللّه لُوطًا إن كان لَيأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ» أي: إِلَى اللّه ﷻ الَّذِي هُو أشَدُّ الأركانِ وأقواها، وإنَّما تَرَحَّمَ عَلَيْهِ لِسَهْوِهِ حِينَ ضاقَ صَدْرُهُ مِنْ قَوْمِهِ حَتَّى قالَ: ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٍ شَدِيدٍ﴾، أراد عِزَّ العَشِيرَةِ الَّذِينَ يَسْتَنِدُ إِلَيْهِمْ، كَما يَسْتَنِدُ إِلَى الرُّكْنِ مِنَ الحائِطِ"[2].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

"بعد أن علِمَ قومُ لوطٍ ﷺ بوجودِ هؤلاءِ الضِّيوفِ عند نبيِّهم، جاؤوا إليهِ مسرعين يسوقُ بعضُهم بعضًا إلى بيتِهِ من شدَّةِ الفرحِ، ومن قبلِ هذا المجيءِ كان هؤلاءِ القومُ الفَجَرَةُ، يرْتَكِبونَ السَّيِّئاتِ الكثيرةَ الَّتي من أقبحِها إتيانُهم الرِّجالَ شهوةً من دونِ النِّساءِ.

يجني الفُسّاقُ على أنفسِهم بأيديهم، ويمكرونَ بأنفسِهم من حيثُ لا يشعرون

(1) الراغب، المفردات: (أوى).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ركن).

وعندما رأى تدافُعَهم نحو بيتِه لارتكاب الفاحشةِ الَّتي ما سبقَهم بها من أحدٍ من العالمين، قال لهم: يا قَوْم هؤلاءِ نساؤكم اللّائي بمنزلةِ بناتي، ارجعوا إليهنَّ، فاقضوا شهوتَكم معهنَّ، فهنَّ أطهرُ لكم نفسيًّا وحِسِّيًّا من التَّلوُّثِ برِجْسِ الفاحشةِ، واتَّقوا اللّه، ولا تجعلوني مَخْزيًّا مفضوحًا أمامَ ضيوفي بسَبَبِ اعتدائِكُم عليهم، فَرَدَّ قومُ لوطٍ بسفاهَةٍ ووقاحةٍ: لقد عَلِمْتَ علمًا لا شكَّ معَهُ، أنَّنا لا رغبةَ لنا في النِّساءِ، فقالَ لوطٌ ﷺ بعدَ أن رأى من قومِه الاستمرارَ في غَيِّهم، ولم يَقْدِرْ على دَفْعِهم على سبيلِ التَّفَجُّعِ والتَّحَسُّرِ: لو أنَّ معي قوَّةً أدْفَعُكم بها لبطَشْتُ بكم"[1]. فطمأنَهُ الملائكةُ بأنَّهم رسلُ اللّه تعالى وأنَّ القومَ الفاسقين لن يضرُّوهُ شيئًا، وأنَّ قومَهُ هالكونَ صُبْحًا، وأمروهُ أن يَخْرُجَ بأهْلِهِ ليلًا لينجوا، وألّا يلتفتَ منهم أحدٌ إلّا امرأتَهُ، فإنَّها هالِكَةٌ مع الهالكين.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواوِ ودلالتُها:

الواوُ تَحْتَملُ العطفَ وهو الظّاهِرُ، وتحتملُ الاستئنافَ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ تحتَملُ أن تكونَ عاطفةً أو استئنافيَّةً، فحَمْلُها على العَطْفِ هو الظّاهرُ؛ لأنَّه من عطْفِ الأحداثِ المتواليةِ بعضِها على بعضٍ في القصَّةِ الواحدةِ، وتحتملُ الاستئنافَ، فيكونُ النَّظمُ الكريمُ آخِذًا في نَقْلِ مشهدٍ جديدٍ بعد مشهدِ مجيءِ الملائكةِ لوطًا ﷺ فينتقلُ السِّياقُ إلى ذكْرِ مشهَدِ إقبالِ الفُسّاقِ إلى بيتِ لُوطٍ ﷺ وقد علموا أنَّ ضيوفًا من الرِّجالِ قد نزلوا بهِ، طلبًا للشَّهوةِ ورغبةً في المتعةِ.

بلاغةُ الإسنادِ المجازيِّ:

مَن غابَ عن الخطيئةِ وهو راضٍ عنها؛ فهو شريكٌ في الإثْمِ

في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أُسندَ المجيءُ إلى القوم، ولم يأتِ القومُ جميعًا لوطًا ﷺ بل "جاءَهُ بَعْضُ قَوْمِه، وإنَّما

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/247، وما بعدها.

أُسْنِدَ المَجِيءُ إلَى القَوْم؛ لِأنَّ مثْلَ ذَلِكَ المَجِيءِ دأْبُهم، وقد تَمالؤوا عَلَى مثْلِه، فَإذا جاءَ بَعْضُهُمْ، فَسَيَعْقُبُهُ مَجِيءُ بَعْضٍ آخَرَ في وقْتٍ آخَرَ، وهَذا منْ إسْنادِ الفِعْلِ إلَى القَبِيلَةِ؛ إذا فعلَهُ بَعْضُها"[1].

ثمَّ إنَّ تَعْميمَ الفعلِ في ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ يدلُّ على أنَّهم جميعًا متورِّطون في الفاحشةِ، وأنَّ من جاءَ، ومَن لم يَجِئْ في الرِّضا سواءٌ، وفي الإثم والجُرم سيّانِ، وبهذا الرِّضا عَمَّتِ العقوبةُ، ونالوا جميعًا الجزاءَ الوِفاقَ، وفي الحديث الصَّحيح: «إذا عُمِلَتِ الخَطِيئَةُ في الأرْضِ، فَمَنْ شَهِدَها، وأنْكَرَها؛ فَهُو كَمَنْ غابَ عَنْها، ومَنْ غابَ عَنْها، ورَضِيَها كَمَنْ شَهِدَها»[2].

طَـــوتِ الآيـــةُ ذِكْـــرَ غَـرَضِـهـم لاشتهارِهِم بِهِ

وقَدْ "طَوى القُرْآنُ ذِكْرَ الغَرَض الَّذي جاؤوا لِأجْلِهِ مَعَ الإشارَةِ إلَيْهِ بِقَوْلِه: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾، فَقَدْ صارَتْ لَهُمْ دأْبًا لا يَسْعَوْنَ إلّا لأجْلِه"[3].

نكتةُ تَكرارِ الضَّمائرِ:

الخَـونَـةُ هُـم من يتـولَّى زمـامَ المبادرةِ في الإبلاغِ عنِ الطّاهرينَ

الضَّمائرُ عواملُ رَبْطٍ للجملِ والتَّراكيبِ بربْطِها بمراجِعِها، ففي قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ﴾، وقوله: ﴿قَوْمُهُۥ﴾، وقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ تعودُ الضَّمائرُ إلى نَبِيِّ اللّه تعالى لوطٍ ﷺ وكذا الضَّميرُ في ﴿يُهْرَعُونَ﴾ يربطُ الفعلَ بالقوم، وبهذا تتواثقُ روابطُ الكَلِم، ويشتدُّ وثاقُ التَّراكيبِ.

وسرُّ ذكرِ الضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ﴾ مع إمكانِ الاستغناءِ عنْهُ من حيثُ المعنى الإجماليُّ، فلو قيلَ: (فجاء قومُهُ يُهرعونَ إليه)؛ لصحَّ الكلامُ، لكنَّ ذِكْرَ الضَّميرِ له سِرٌّ، وهو الكشْفُ عن أنَّ مجيئَهُم كان مقصودًا به بيتُهُ ﷺ فهم قد أتَوا عالمين بوجودِ الضِّيفان، وهذا يُنْبِئُ عن وجودِ خَونَةٍ تناقلوا الأخبارَ، حتَّى وصلَتْ إلى مجموعةٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/126.
(2) المعجم الكبير للطبراني: 17/139 الحديث رقم: (345).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/126.

بعينها، فجاؤوه مسرعين، ولو لم يُذْكَر الضَّميرُ في ﴿وَجَآءَهُۥ﴾ لما تبيَّنَ هذا الملحظُ، ويُقوِّي هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾.

بلاغةُ استعمالِ لفظِ ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

السُّلوكُ الشّاذُّ دليلُ الاضطرابِ النَّفسيِّ وأمارةُ الانفعالِ الحسِّيِّ

جاء لفظُ ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ بضَمِّ الياءِ وفَتْحِ الرّاءِ عَلَى صيغَةِ المَبْنِيِّ لِلْمَفْعُولِ، وهو مَشْيٌ شبيهٌ بِمَشْيِ المَدْفُوعِ، وهُو بَيْنَ الخَبَبِ والجَمْزِ، فَهُو لا يَكُونُ إلّا مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ؛ لِأَنَّ أَصْلَهُ مَشْيُ الأسيرِ الَّذي يُسْرَعُ بِهِ، وهَذا البِناءُ يَقْتَضِي أنَّ الهَرْعَ هُو دَفْعُ الماشِي حِينَ مَشْيِهِ إلّا أنَّ ذَلِكَ تُنُوسِيَ، وبَقِيَ أَهْرَعَ بِمَعْنَى سارَ سَيْرًا كَسَيْرِ المَدْفُوعِ، ولِذَلِكَ قالَ جَمْعٌ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ: إنَّهُ مِنَ الأَفْعالِ الَّتِي التَزَمُوا فِيها صِيغَةَ المَفْعُولِ؛ لِأَنَّها في الأَصْلِ مُسْنَدَةٌ إلَى فاعِلٍ غَيْرِ مَعْلُومٍ، وفَسَّرَهُ في الصِّحاحِ والقامُوسِ بِأَنَّهُ الِارْتِعادُ مِنْ غَضَبٍ أَوْ خَوْفٍ، وعَلَى الوَجْهَيْنِ، فَجُمْلَةُ ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ حالٌ[1].

وتظهرُ بلاغةُ هذا الاستعمالِ في كونِ الفاعلِ في حكم المحذوفِ لفظًا، المعلوم دلالةً، والمادَّةُ تدلُّ على سَيْرٍ غيرِ قويمٍ، وفي الغالب أنَّ المؤثِّرَ في هذا السَّيرِ هو الاضطرابُ الدّاخليُّ الَّذي يعيشُه القومُ، فهم بمجرَّدِ وصولِ الخبر اتَّجهوا صَوْبَ لوطٍ ﷺ يطلبونَ الغنيمةَ الباردةَ.

نكتةُ ذِكْرِ الضَّميرِ المفردِ لا الجمْعِ:

الصّالحونَ غايةُ كلِّ باطشٍ فاحشٍ

قُيِّدَ الفعلُ ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ بالجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَيۡهِ﴾ لا إلى الضَّيفِ وهم جمعٌ، حيثُ يُقوِّي ذلك أنَّ لوطًا ﷺ هو مقصودُ قومِه بالمجيءِ، وإلّا لكانَ القيدُ بجمْعِ الضَّميرِ (إليهم) لا ﴿إِلَيۡهِ﴾، وذلك يتَّسِقُ تمامَ الاتِّساقِ مع ذِكْرِ ضميرِه ﷺ في ﴿وَجَآءَهُۥ﴾، وكان يصحُّ ذِكرُ المجيءِ بدونِ الضَّميرِ، فيُقالُ: وجاءَ قومُهُ - كما سبقَ التَّنبيهُ - وبهذا يتناغمُ أوَّلُ الجملةِ مع آخرِها في أداءِ المعنى المقصودِ، ثَمَّ تأتي القرائنُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/12.

التّاليةُ صارفةً نِيَّتَهم السُّوءَ عنه إلى أضيافِه، فهم يقصدونَ الأذى له على وجهِ الخصوصِ، والَّذي يوحي بهِ السِّياقُ أنَّ قومَه أرادوا به سوءًا خاصًّا؛ إذ يشقُّ عليهم نهيَهم عن المُنكرِ الَّذي يُمارسونَهُ، فأرادوا الانتقامَ منهُ، كي لا يُعاوِدَ الكرَّةَ بعدَ الأخرى، ما علموا أنَّهم انتقموا من أنفسِهم.

معنى الواوِ وموقعُ الجملةِ:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ حاليَّةٌ، وجملة ﴿كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ اعتراضيَّةٌ أو حاليَّةٌ، الغرضُ منها التَّذكيرُ بحالِ ماضيهم المخجِلِ؛ إذ السِّياقُ يطَّردُ بدونها، فلو قيل: (وجاءه قومُه، قال: يا قومي هؤلاءِ بَناتي). بإسقاطِ جملةِ: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾؛ لكنَّها جملةُ اعتراضٍ تُذَكِّرُ بتاريخِهم المنْحَطِّ في تلك الفاحشةِ، وتُهيِّئُ لجملة: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ﴾.

الرِّجالُ معادنُ فمن شبَّ على شيءٍ؛ شابَ عليهِ

معنى حرفِ (من):

حرفُ ﴿وَمِن﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ للابتداءِ، وهو يستدعي البدايةَ المشؤومةَ، التي مارسَ فيها القومُ فَحْشاءَهُم، ففيها إشارةٌ إلى النِّهايةِ الأليمةِ التي عاينوها، وكابدوها، هي نهايةُ الطَّمْسِ، والخَسْفِ، والقَذْفِ بالحِجارَةِ، فهذا الحرفُ يمهِّدُ لذكرِ النِّهايةِ، إذ التَّذكيرُ بالبداياتِ تلويحٌ بالنِّهاياتِ.

التَّذكيرُ بالبداياتِ تلويحٌ بالنِّهاياتِ

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

دلَّ تقديمُ القيدِ ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ على الفعلِ ومتعلَّقاتِهِ: ﴿كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾، على أنَّ زمنَ عملِ السَّيِّئاتِ غيرُ مقيَّدٍ بزمنٍ محدَّدٍ، وليس من عنايةِ القرآنِ في مثلِ هذه الأحداثِ تعيينُ الأزمانِ؛ إذِ العبرةُ كامنةٌ في عَمَلِهِمُ السَّيِّئاتِ، لا في تعيينِ زمانِ بداياتِها، وتعيينُ البداياتِ التّاريخيَّةِ هو شأنُ أهلِ التَّنظيرِ، كما أنَّ هذا القيدَ يَلفِتُ إلى تأصُّلِ رذيلةِ المقدَّمِ - وهو الفِسقُ - فيهم، وتَمَكُّنِهِ منهم

من رحمةِ اللهِ سبحانه بعبادِهِ أنَّه يأخذُ المجْرِمَ إذا أصرَّ على فُحْشِهِ

منذُ قديمٍ، "أيْ: لَمْ يَزَلْ هَذا منْ سَجِيَّتِهِمْ حَتَّى أُخِذُوا، وهُمْ عَلَى ذَلِكَ الحالِ"[1].

وقد قيل: إنَّ المقصودَ بالقيدِ ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ هو قبلَ مجيءِ الرُّسلِ، وقيل: ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي: قبلَ "بَعْثِ لوطٍ رسولًا إليهم كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ، والمرادُ من ذِكْرِ عملِهِم السَّيِّئَاتِ من قبلُ بيانُ أنَّهم اعتادوا المنكرَ، فلم يستحيوا، فلذلك أسرعوا لطلبِ الفاحشةِ من ضيوفِهِ مظهرين غيرَ مكترثين، فالجملةُ معترضةٌ لتأكيدِ ما قبلَها"[2]. والقولانِ صحيحانِ؛ إذ الفاحشةُ كانت فيهم قَبْلَ بعثةِ لوطٍ عليه السلام ويدخلُ القولُ الآخرُ فيهِ.

سرُّ استعمالِ ﴿كَانُواْ﴾ مع استمرارِهم على ذلك الفعلِ:

التَّأصُّلُ في عملِ (السَّيِّئات) من دواعـــي نـــزولِ العقوبةِ

ذُكِرَ الفعلُ ﴿كَانُواْ﴾ ليُقرِّرَ أنَّهم متأصِّلونَ في الرَّذيلةِ، وأن حُبَّ الفاحشةِ قد تَمكَّن منهم، وأنَّ عملَ السَّيِّئات تجذَّرَ في أخلاقهم، و﴿كَانُواْ﴾ ولا يزالُ بدليل أنَّهم أتَوا يطلبونَ الأضيافَ بسوءٍ في فَرَحٍ ومَرَحٍ وسُرعةٍ وخِفَّةٍ، فـ "من قبلِ ذلك الوقتِ كانوا يعملون الفواحشَ ويكثِّرونها، فضرُّوا بها، ومَرَنُوا عليها، وقلَّ عندهم استقباحُها، فلذلكَ جاؤوا ﴿يُهْرَعُونَ﴾ مجاهرين، لا يكُفُّهُم حياءٌ"[3].

نكتةُ استعمالِ مفردةِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾:

العملُ لا تُعرَفُ نتائِجُه مقدَّمًا، ونتائج الفعلِ والصُّنعِ يمكنُ أن تُعرَفَ مقدَّمًا

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردةِ (عمل) في قولهِ تعالى: ﴿كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ دون مفردة (فعل) و(صنع)، وذلك لما في (العمل) من تأثيرٍ واضحٍ في المعمولِ، ولِما فيهِ من إبهامِ النَّتيجةِ بالنِّسبةِ للعامل، أمّا (الفعل)؛ فيكونُ قبلها مقدورًا[4]، سواءٌ كان عن سببٍ أم لا، و(الصُّنع) فيه ترتيبٌ وإحكامٌ، فيقتضي العلمَ بما

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/337.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/302.
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/413.
(4) العسكريّ، معجم الفروق اللغويّة، ص: 321، 377.

يكونُ أمّا العملُ؛ فليسَ فيهِ هذا ولا ذاك، بل يتميَّزُ بالتَّأثيرِ المفقودِ فيهما، وقومُ لوطٍ ﷺ كانوا يَفسُقونَ، ويؤثِّرون بهمجيَّةٍ لا نظام لها ولا شرعيَّةَ توصِلُ إلى نتيجةٍ طيِّبةٍ.

سرُّ اختيارِ مفردةِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾:

جاءت مفردةُ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ جمعًا دونَ لفظِ (الفواحش)، وقد أفادت أنَّ هؤلاءِ القومَ مَوبوؤون بكلِّ سَيِّئَةٍ، ومن السَّيِّئاتِ الفواحشُ، وليست كلُّ سيئةٍ فاحشةً، فالسَّيِّئاتُ أعمُّ وأشملُ وأكثرُ تنوُّعًا؛ لذلك وصمَهُم الذِّكر الحكيمُ بعملِ السَّيِّئات عمومًا، وأنَّ فيهم أنواعَ السَّيِّئات الَّتي تخطرُ على البالِ، منها الفاحشةُ المعهودةُ، فليس الأمرُ مخصوصًا بها؛ إذ شأنُ الفاحشةِ أن تُناديَ على أخواتِها.

من شأنِ الفاحشةِ أن تُناديَ على أخواتِها

وقد "عبَّرَ القرآنُ عن هذا المنكرِ الَّذي يَتعاطَونَهُ بالوصفِ المناسبِ لهُ، دون أن يُذْكَرَ اسمُهُ، تقزُّزًا لَهُ، وصيانةً للأفواهِ أن تتلفَّظَ بهِ، وللأسماعِ أن يقعَ عليها، ومن جهةٍ أخرى، فقد جاء القرآنُ بوصفهِ جمعًا، هكذا: "السَّيِّئات" للدَّلالةِ على أنَّه منكرٌ غليظٌ مركَّبٌ، وأنَّه ليس سَيِّئةً، بل هو سَيِّئاتٌ، وليس مُنكرًا، بل هو منكراتٌ"[1].

معنى التَّعريفِ في لفظِ: ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾:

(أل) في كلمةِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ إمّا أن تكونَ للعهد؛ أي: السَّيِّئاتُ الَّتي علمها المخاطَبُ، وهي الفاحشةُ القذرةُ الَّتي عُرِفَت بهم، وعُرفوا بها، وقد يُرادُ بتعريفِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ جِنْسُها؛ أي: كلُّ أنواعِ السُّوءِ، وحمْلُها على العموم الجنسيِّ أولى لدخولِ الفواحشِ فيها، ففي تعريفِها مع اختيارِ مادَّتِها إزْراءٌ عليهم، وتحقيرٌ لهم، وتعليلٌ وافٍ موجزٌ لأسبابِ هلاكِهم هذا الهلاكَ الفظيعَ الذي حلَّ بِهم.

(السَّيِّئات) عامَّةٌ، ويدخلُ فيها الفواحشُ

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ جملةٌ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/1178.

"مُسْتَأْنَفَةٌ بَيانِيًّا ناشِئًا عَنْ جُمْلَةِ ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾، إذْ قَدْ عَلِمَ السّامِعُ غَرَضَهُمْ مِنْ مَجِيئِهِمْ، فَهُوَ بِحَيْثُ يَسْألُ عَمّا تَلَقّاهُمْ بِهِ"[1]؛ إذ يُثير ذِهْنَ المخاطَبِ سؤالٌ إزاءَ هذا الموقفِ المحرجِ العصيبِ: وما موقفُ لوطٍ ﷺ من مجيئهم؟

من الكياسةِ وأسبابِ النَّجاةِ التَّعاملُ مع المعتدين بلباقةٍ

فيأتي الجوابُ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، فهو لا يَمْلِكُ لهم إلّا القولَ، وأنَّه لا حيلةَ لهُ في دفْعِهم وردِّهم عن الإيقاعِ بالأضيافِ سوى التَّلطُّفِ في إقناعِهم، يَفتحُ بذلك انفراجَةً لهذه الأزمة العظيمة الَّتي يواجهها، لكن هيهاتَ، وقد حُقَّ عليهم الهلاكُ أن يثوبوا إلى رشْدِهم.

غرَضُ استعمالِ أسلوبِ النِّداءِ:

من لا يُخجِلُهُ الكلامُ الطَّيِّبُ، يَلزَمُهُ العذابُ المُهلِكُ

في قولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ "افْتِتاحُ الكَلامِ بِالنِّداءِ وبِأنَّهُمْ قَوْمُهُ تَرْقِيقٌ لِنُفُوسِهِمْ عَلَيْهِ؛ لِأنَّهُ يَعْلَمُ تَصَلُّبَهُمْ في عادَتِهِمُ الفَظِيعَةِ، كَما دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُمْ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ [هود: 79]"[2]، فمن شأنِ هذا النِّداء أن يخجِّلَ المنادَى إن لم يرقِّقْ قلبَهُ، ويُحَنِّنْهُ، لكن تبلُّدُ المشاعرِ لدى القوم الفاسقين بلغَ بهم في الانحطاطِ إلى أن يجيبوهُ بقولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾.

إنَّ لوطًا ﷺ يَتلطَّفُ بقومه، ويلينُ لهم المقالَ؛ إذ الوقتُ ليس للعنفِ، ولا يستطيعهُ، فالضُّيوفُ داخلَ بيتِه، وربَّما يسمعونَ الجلبةَ والضَّجيجَ، ولوطٌ ﷺ إزاء هذا الحَرَجِ لا يملكُ سوى الملاطفَةِ، وتقديم الحلولِ، فلجأ إلى النِّداء بأداةِ البُعْدِ (يا) تطييبًا لخاطر هؤلاءِ الرُّعاعِ الغَوغائيِّينَ، لعلَّهم يرجعونَ، لكن دونَ جدوى.

فائدةُ نسبةِ القوم إلى ضميرِ المتكلِّم:

في إضافةِ لفظِ (قوم) إلى ضميرِ المتكلِّم في قولِه تعالى: ﴿قَالَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/126.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/126.

قد يسمّي الرَّجلُ القومَ أهلَهُ، وليس منهم؛ لحقِّ الجوارِ والمعايشةِ

﴿يَٰقَوۡمِ﴾ نوعُ تَحْنِينٍ لقلوبهم، وتقريبٍ لهم، فكأنَّه يقولُ: أنتم قومي، وقومُ الرَّجلِ لا يَخذُلونَهُ، ولا يُخْزونَهُ في ضيوفِهِ، وإلى مَن ألجأُ احتماءً منكم، والمفترَضُ أنَّكم حُماتي وقومي وعُزوتي؟ "سَمّاهُمْ قَوْمَهُ بِمَعْنَى: أهْلِ جِوارِهِ ووطَنِهِ الجَدِيدِ، وإنَّما هُو غَرِيبٌ جاءَ مَعَ عَمِّهِ مِنْ أوْرِ الكَلْدانِيِّينَ في العِراقِ"[1].

دلالةُ استعمالِ اسم الإشارةِ:

تقديمُ بدائلِ الإصلاحِ خيرٌ من مناورةِ الفُجّارِ

قولُهُ تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ يُوجِّهُ القومَ نحو البديلِ المسموحِ المشروعِ، البديلِ الطّاهرِ الذي تقتضيه النُّفوسُ القويمةُ والفِطرةُ المستقيمةُ، وهذا يُعلِّمُنا أن نَفْتَحَ أبوابَ الحلالِ لمن ندعوهم إلى إغلاقِ أبوابِ الحرامِ؛ لأنَّه أدعى للاستجابةِ، وهكذا فعلَ لوطٌ ﷺ.

ويشيرُ ﷺ إلى هذا البديلِ المشروعِ بالإشارةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ ليميِّزهنَّ أمامَ الأعينِ، و"لتنزيلهنَّ منزلةَ الحاضرِ"[2]، علَّهم يَرَوْنَ فيهنَّ البديلَ الأنسبَ والبيئةَ الأطهرَ، لكنَّ الطَّبعَ الخبيثَ غلبَهم، وعذابُ اللّه سبحانه حُقَّ عليهم، فأنَّى لهم النَّجاةُ؟

فائدةُ ذِكْرِ النِّساءِ باسم البَناتِ:

المُصلحونَ يُعاملون نِساءَ أقوامهم كبناتِهم

يُوحي استعمالُ مفردةِ البناتِ في جملة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ بالحنانِ بالنِّسبة للآباءِ، وبهذا يشيرُ لوطٌ ﷺ للقوم الهارِعين أنَّه يُقدِّمُ لهم أغلى ما يمتلكُ ليأتوهُنَّ حلالًا، وينصرفوا عن الحرام، سواءٌ أرادَ بناتِهِ الصُّلبيّاتِ، فيزوِّجُهم بهنَّ، أو أرادَ نساءَ القوم وزوجاتِهم.

كما أنَّ لِلَفظِ (بَنَاتٍ) إغراءً جاذبًا بخلاف مفردةِ النِّساء؛ إذ البَناتُ ما زِلنَ يتمتَّعْنَ بالحيويَّةِ والجمالِ، ويمتلِكْنَ الرِّقَّةَ والبراءةَ والحياءَ، وهذا يُغْري الرِّجالَ، ويَجْذِبُهم إليهنَّ، أمّا النِّساءُ؛ فربَّما أثقلَتْهُنَّ أعباءُ الحياةِ، فيؤثِّرُ ذلك في حيويَّتِهنَّ وجمالِهنَّ، وربَّما

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/112.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/303.

ذهبَ ببعضِ رِقَّتِهِنَّ وحيائِهنَّ؛ لذلك آثرَ لوطٌ ﷺ في مقامِ الإغراءِ بالبديلِ الأطيبِ الـ (بَنَاتٍ) ولعلَّ هؤلاءِ الفسّاقَ ينشغلونَ عن إرادةِ الفاحشةِ بالأضيافِ بهنَّ.

مُشْكِلُ استعمالِ لفظِ البناتِ:

التَّزويجُ إنَّما يكونُ بعد تحقُّقِ شروطِهِ الشَّرعيَّةِ فهي دعوةٌ ضمنيَّةٌ للانكفافِ عنِ الحرام

استُشْكِل عَرْضُ لوطٍ ﷺ بناتِهِ على أولئكَ المُهْرِعين ليتزوجُوهُنَّ معَ القولِ بأنَّهم أكثرُ منهنَّ؛ إذ لا يُسوَّغُ القولُ بِحِلِّ تزوُّجِ الجماعةِ بأقلَّ منْهُم في زمانٍ واحدٍ.

وقد أُجيبَ عن ذلك بثلاثةِ أجوبةٍ: "أحدُها: أنَّه كان في شريعةِ لوطٍ يجوزُ تزويجُ الكافرِ بالمؤمنَةِ، وكان هذا في صدر الإسلام جائزًا حتَّى نُسِخَ، قالَهُ الحَسَنُ.

الثّاني: أنَّه يزوِّجُهم على شَرْطِ الإيمانِ، كَما هو مشروطٌ بعقْدِ النِّكاحِ.

الثّالث: أنَّه قالَ ذلكَ ترغيبًا في الحلالِ، وتنبيهًا على المباحِ ودفعًا للبادِرَةِ من غيرِ بذْلِ نكاحِهنَّ ولا بخطبتِهنَّ"[1].

قالَ الزَّمخشريُّ: "ويجوزُ أن يكونَ عرْضُ البناتِ عليهم مبالغةً في تواضعِهِ لهم، وإظهارًا لشدَّةِ امتعاضِهِ ممّا أوردُوا عليهِ، طمعًا في أن يستحيوا منْهُ، ويَرِقُّوا لَهُ - إذا سَمعُوا ذلك - فيتركوا لهُ ضيوفَهُ مع ظهورِ الأمرِ واستقرارِ العلم عندَهُ، وعندهُم أن لا مناكحةَ بينَهُ وبينَهم، ومن ثمَّ قالُوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ مستشهدينَ بعلْمِهِ ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ لأنَّك لا ترى مناكَحَتَنا"[2].

والـ"ظاهرُ أنَّه ﷺ كان واثقًا بأنَّ قومَهُ لا يُؤْثِرُونَهُنَّ بوجهٍ ما، مهما أطرى وأطنبَ، وشوَّقَ، ورغَّب، فكان إظهارُهُ وقايةَ ضيفانِهِ وفداءَهُم بِهِنَّ، مع وُثُوقِهِ المذكورِ وجَزْمِهِ مبالغةً في الاعتناءِ بحمايتِهِم، وقيامًا

(1) الماوردي، النكت والعيون: 2/488.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/414.

بالواجب في مثلِ هذا الخَطْبِ الفادِحِ الفاضِحِ الَّذي يدومُ عارُه وشنارُهُ، من الدِّفاع عنهم بأقصى ما يمكنُ لكيلا يُنسبَ إلى قصورٍ، ولِيعلمَ أن لا غايةَ وراء هذا لمن لا رُكْنَ لَهُ من عشيرةٍ أو قبيلةٍ، فذلكَ غايةُ الغاياتِ في حيطَتِهم ووقايَتِهم"[1].

بلاغةُ الحَذْفِ:

شـأنُ التَّلويحِ بالمطلوبِ ليسَ كالتَّصريحِ بهِ

عَرَضَ لوطٌ ﷺ بناتِهِ على القوم قائلًا: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾؛ أي: فتزَوَّجُوهم، ولا يُتصوَّرُ خلافُ ذلك؛ لأنَّهُ يختمُ كلامَهُ بذِكْرِ الطُّهْرِ، والطُّهْرُ لا يكونُ إلّا مع الزَّواجِ، وسرُّ حذْفِ قوله: (فانكحوهن)؛ إذ تقديرُ الكلام: (هَؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فانكحوهنَّ)؛ فلأنَّه معلومٌ لدى الجميعِ من سياقِ الآيةِ، ثمَّ لأنَّ المقامَ أضيقُ من ذكْرِ شيءٍ مفهومٍ، فالمجرمونَ يتهجَّمونَ، ويتسوَّرونَ أسوارَ البيتِ، والتَّصريحُ بـ (انكحوهنَّ) فيه قهرٌ للوطٍ ﷺ إذ شأنُ التَّلويح ليس كالتَّصريحِ، فهو لوَّحَ لهم بالنِّكاحِ، لكن لم يُطاوعْهُ لسانُهُ بذلكَ.

بلاغةُ التَّشبيهِ:

تَشبيهُ نساءِ القَوْمِ بالبناتِ من بابِ التَّحبيبِ والتَّرغيبِ

قد أضافَ لوطٌ ﷺ البناتِ إليه على تقديرِ: (هنَّ مثلُ بناتي)؛ أي: هؤلاءِ نساؤهُنَّ كبناتي، وذلك أنَّ السِّياقَ يدلُّ على كثرةِ الهارعين إليهِ، فلا يُتصوَّرُ أن يكونَ عندَهُ بناتٌ على الحقيقةِ يكفينَ الهارِعينَ، فعليهِ تكونُ الإشارةُ إلى نساءِ قومِ لوطٍ، وتنزيلُهن منزلةَ بناتِهِ تحبيبًا وترغيبًا، أو باعتبارِ عمرِهِ فهو كأبيهنَّ، "وكلُّ نَبيٍّ أبو أمَّتِهِ وهم أولادُهُ"[2]، وعن "سعيدِ بن جُبيرٍ: كانَ في بعضِ القرآن: النَّبيُّ أوْلَى بِالمُؤْمنينَ منْ أنفُسِهِمْ وأزواجُهُ أمَّهاتُهم، وهو أبٌ لهم"[3].

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 6/119.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 2/488.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 2/488.

والإضافةُ للإغراءِ بالبناتِ، وهو قد بلغَ من السِّنِّ أن ينزِّلهنَّ منزلةَ بناتِهِ، ثمَّ إنَّهُ عندَهم رجلُ دينٍ مستقيمٌ إن لم يكن نبيًّا، ومن لوازم ذلك أنَّ ما يضافُ إليه يتَّسِمُ بالطُّهْرِ، ولذلك قال ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ ترغيبًا لهم وتحبيبًا.

"قال مُجاهد: لم يكُنّ بناتِهِ، ولكِن كُنّ من أمّتِهِ، وكُلُّ نبيّ أبُو أمّتِه... قال ابنُ جُريج: أمرهُم أن يتزوّجُوا النِّساء، ولم يعرِض عليهِم سِفاحًا"[1]. فـ "المُرادُ نِساءُ أُمّتِهِ؛ لِأنّهُنّ في أنفُسِهِنّ بنات، ولهُنّ إضافة إليهِ بِالمُتابعةِ وقبُولِ الدّعوةِ، قال أهلُ النّحوِ: يكفِي في حُسنِ الإضافةِ أدنى سبب؛ لِأنّهُ كان نبيًّا لهُم، فكان كالأبِ لهُم، قال تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: 6]، وهُو أب لهُم، يقولُ الرّازيُّ: وهذا القولُ عِندِي هُو المُختارُ، ويدُلُّ عليهِ وُجُوه: الأوّلُ: أنّ إقدام الإنسانِ على عرضِ بناتِهِ على الأوباشِ والفجّارِ أمر مُستبعد لا يليقُ بِأهلِ المُروءةِ، فكيف بِأكابِرِ الأنبياءِ؟"[2].

بلاغةُ التَّغليبِ:

ذِكْرُ البَناتِ تغليبٌ لهنَّ على النِّساءِ بقصْدِ التَّحبيبِ والتَّقريبِ

لا شَكَّ أنَّ نساءَ القوم أغلبُ وأكثرُ من بنتَيْهِ ﷺ لكنَّهُ أطلقَ على نساءِ القريةِ ﴿بَنَاتِي﴾ من باب التَّغليبِ إغراءً للقوم، والقومُ تُطلَقُ غالبًا على الرِّجالِ دونَ النِّساءِ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: 11]، فغلَّبَ صفةَ بناتِهِ الصُّلْبِيّاتِ على نساءِ القريةِ جمعاواتٍ ترغيبًا للقوم الفاسقين في العودةِ إلى أزواجِهنَّ، وجازَ لهُ إطلاقُ ﴿بَنَاتِي﴾ عليهنَّ لبلوغِهِ في السِّنِّ مستوى آبائِهنَّ.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/337.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/379.

نكتةُ مجيءِ اسم التفضيل مع انتفاءِ المفاضلَةِ:

صيغةُ التَّفضيلِ مسلوبةُ المفاضلةِ استُعملَتْ لِلْمُبالغةِ بالطُّهرِ

في وصف لوطٍ لبناتِه ﷺ بأنَّهنَّ ﴿أَطْهَرُ﴾ إقرارٌ بِطُهْرِ فاحشةِ القوم الفاسقين، وذلكَ غيرُ مُرادٍ قطعًا، لكنَّه ﷺ عبَّرَ بأفعلِ التَّفضيلِ ﴿أَطْهَرُ﴾ جريًا على رغبَتِهم الآثمةِ وفاحشتِهم الذَّميمةِ الَّتي يعشقونها، ويتعلَّقون بها، ففي أفعلِ التَّفضيلِ ﴿أَطْهَرُ﴾ تدرُّجٌ بهم منَ النَّجاسةِ إلى الطَّهارة، ومن القُبْحِ إلى الحُسْنِ، وكأنَّهُ يقول لهم: إن كان ما تفعلونَهُ حبيبًا لكم طاهرًا عندكم، فبناتي أطْهَرُ.

قال القُرطُبيُّ: "لَيْسَ ألِفُ ﴿أَطْهَرُ﴾ لِلتَّفْضِيلِ حَتَّى يُتَوهَّمَ أنَّ في نِكاحِ الرِّجالِ طَهارَةً، بَلْ هُو كقولك: اللهُ أكْبَرُ، وأعْلَى، وأجَلُّ، وإنْ لم يكن تفضيلٌ، ولَمْ يُكابِرِ اللهَ تعالى أحَدٌ حَتَّى يَكُونَ اللهُ تعالى أكْبَرَ منْهُ، وقَدْ قالَ أبُو سُفْيانَ بْنُ حَرْبٍ يَوْمَ أُحُدٍ: اعْلُ هُبَلُ اعْلُ هُبَلُ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعُمَرَ: «قُلِ: اللهُ أعْلَى وأجَلُّ». وهُبَلُ لَمْ يَكُنْ قَطُّ عالِيًا، ولا جَلِيلًا"[1].

و"في قوله ﷺ: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ منَ التَّشويقِ على مرأًى من ضيفانهِ ومسمَعٍ ما فيهِ من زيادةِ الكرم والإكرام ورعايةِ الذِّمام، وبالجملةِ فهو ترغيبٌ بِمُحالِ الوقوعِ باطنًا، وإعذارٌ لنُزَلائِهِ ظاهرًا"[2]، "كقولكَ: الميتةُ أطيبُ من المغصوبِ وأحلُّ منهُ، ويرادُ منَ الطَّهارةِ على الأوَّلِ الطَّهارةُ الحسِّيَّةُ: وهي الطَّهارةُ عمّا في اللِّواطةِ من الأذى والخُبثِ، وعلى الثاني الطَّهارةُ المعنويَّةُ: وهو التَّنَزُّهُ عنِ الفُحْشِ والإثْمِ، وصيغةُ أفعلَ في ذلك مجازٌ"[3]، فـ "اسْمُ التَّفْضِيلِ مَسْلُوبُ المُفاضَلَةِ قُصِدَ بِهِ قُوَّةُ الطَّهارَةِ"[4]، و"المبالغةُ في الطُّهْرِ"[5].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/76.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/119.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/303.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/127.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/249.

بلاغةُ ذكرِ قيدِ ﴿لَكُمۡۖ﴾:

لا شَكَّ أنَّ نكاحَ النِّساءِ أطهرُ للقوم ولغيرِهم، لكنَّهُ ﷺ وهو بمعرضِ إغرائِهم على تَرْكِ الرَّذيلةِ يُكثِّفُ عناصِرَ الجذْبِ نحو الحَلالِ المشْروعِ، فبعدَ أن أغراهم بالأطْهَرِ تمَّمَ لهم الإغراءَ بذِكْرِ قَيْدِ ﴿لَكُمۡۖ﴾ في جملةِ ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ ظاهرُهُ التَّخصيصُ، وكأنَّ طُهْرَ الزَّوجاتِ أطْهَرُ لهؤلاءِ بخاصَّةٍ، فساقَ النَّظمُ كلَّ ذلك الحشْدِ من الخصائِصِ التَّركيبيَّةِ المؤثِّرةِ لبيانِ حرصِ لوطٍ ﷺ على ثَنْيِهم عن الفاحِشَةِ، ويجذبُ قلوبَهُم نحو الزَّوجاتِ، ولكن دونَ جَدوى.

من تمكَّنَ الفجورُ من قلبِهِ لم يُغرِهِ خطابُ الأكرمينَ

موقعُ جملةِ ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ من السّابقِ:

فُصِلَتْ جملةُ ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ عن جملةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾، إمّا على جعلِها استئنافًا بيانيًّا، على افتراضِ وجودِ سؤالٍ: لماذا نَنْكِحُهنَّ؟ فيأتي الجوابُ؛ لأنَّهنَّ أطهرُ لكم، فانكحوهُنَّ، "فجُمْلَةُ ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ تَعْلِيلٌ لِلْعَرْضِ"[1]، ويصحُّ أن تكونَ حاليَّةً، والعاملُ فيها معنى الإشارةِ؛ أي: انكحوهُنَّ فحالهُنَّ الطُّهرُ.

تعليلُ النِّكاحِ بالطُّهرِ لا الفُحشِ

معنى حرفِ الفاءِ:

أفادتِ الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ التَّفريعَ؛ أي: تفريعَ الأمرِ بالتَّقوى على الأمرِ بنكاحِ البَناتِ، وتحتملُ أن تكونَ فصيحةً؛ أي: إن كنتُم تريدونَ النَّجاةَ؛ فاتَّقوا اللّه.

تقوى الله أصلُ النَّجاةِ والفوزِ عندَه تعالى

غرَضُ الأمرِ:

غرضُ الأمرِ في خطابِ لوطٍ ﷺ قومَهُ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ التَّوجيهُ والنُّصح والإرشادُ؛ لأنَّه وإن كان أمرًا مطلوبًا به الامتثالُ والتَّنفيذُ غير أنَّه غيرُ صادرٍ من الأقوى الأقهرِ، وليس أمرًا على سبيلِ الإلزامِ والقهرِ للمأمورِ، ولو كان لوطٌ ﷺ يَمْلِكُ القوَّةَ الظّاهرةَ الَّتي تُرغِمُهم

يَجتَمعُ النُّصحُ والإرشادُ مع التَّهديدِ والوعيدِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/127.

على تنفيذ فعلِ التَّقوى؛ لكان أمرًا حقيقيًّا؛ لأنَّه صادرٌ حينئذٍ من الأعلى إلى الأدنى.

وبالإضافةِ إلى التَّوجيهِ والنُّصحِ والإرشادِ، ففيهِ معنى التَّهديدِ والوعيدِ، "فذِكْرُ اللَّه ﷻ تخويفٌ لهم، وتهديدٌ بقوَّةِ اللَّه ﷻ إن لم يَتَّقُوهُ، ويستقيموا على طريقِ المؤمنين"[1].

نكتةُ إيثارِ ذِكْرِ لَفْظِ الجلالةِ:

مقامُ التَّرهيبِ والتَّشريعِ يتناسَبُ مع لَفْظِ الجَلالةِ

المقامُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ مقامُ تخويفٍ وتحذيرٍ وحَمْلٍ على الفِعْلِ رهبةً؛ لذلكَ ذكَّرهُم لوطٌ ﷺ باسم الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ دونَ لفظِ الرَّحمةِ (الرحمن) أو (الرحيم)، وفرقٌ بين مقام الإغراءِ باسم (الرحمن) وبين مقام التَّخويفِ باسم الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾، وكذلك فالمقامُ مقامُ أمرٍ ونهيٍ وبيانِ التَّشريعِ، وهذا يلائمُهُ عنوانُ الألوهيَّةِ، والمقامُ هنا جللٌ لا يَحْتَملُ التَّرغيبَ؛ لأنَّهم فاسقون يتهجَّمونَ على ضيفِهِ ﷺ ويقصدونهم بسوءٍ.

فائدةُ عَطْفِ النَّهي على الأمْرِ:

النَّهيُ بعدَ الأمْرِ بيانٌ وتعيينٌ للمطلوبِ

نهى لوطٌ ﷺ قومَه بقولِه: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ﴾ بعد أن أمرَهم بقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ لتقويةِ دفاعِهِ عن ضيفِهِ، وتأكيدِ ردِّهِ إيّاهم بجملةٍ فيها استعطافٌ لهم، وجاءت جملةُ النَّهي ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ﴾ معطوفةً على جملة ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ للتوسُّطِ بين الكمالين، فقد اتَّحدتا في الإنشائيَّةِ: الأولى أمرٌ والثانيةُ نهيٌ، وغرضهما واحدٌ، وهو محاولةُ ثني القوم الفاسقين عن جريمتهم، والأولى: تتعلَّق بحقِّ اللَّه تعالى عليهم، والأخرى: تتعلَّق بحقِّ لوطٍ ﷺ عليهم، فهُم قومُهُ، والضَّيفُ ضيفُهُ، فلا هم امتثلوا لحقِّ اللَّه ﷻ ولا هم احترموا حقَّ الضَّيفِ، فبئسَ القومُ الفاسِقونَ!

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/1179.

نكتةُ استعمالِ مُفردةِ ﴿تُخْزُونِ﴾:

الـخِـزْيُ أخـصُّ من الإهانةِ فهو استخفافٌ وعارٌ يـلـحَـقُ بـأهـلِ الصَّلاحِ

آثرَ النَّظمُ استعمالَ مفردةِ ﴿تُخْزُونِ﴾ دون (تهينونِ)؛ لِما فيها من استخفافٍ يُلحِقُ بالنَّفسِ الانكسارَ والهوانَ، فلا يليقُ أن يُلْحَقَ برَجُلٍ وقورٍ مثلِ لوطٍ ﷺ ذلك، فهو يُحاولُ أن يُخْفِيَ عن الأضيافِ نِيَّةَ القومِ، ولكنَّ ضجيجَ القومِ وضَوضائِيَّتَهُم وضعَهُ ﷺ موضِعَ المتحيِّرِ، ولا يدري ما يفعلُ، وللفعلِ ﴿تُخْزُونِ﴾ معانٍ "أحدُها: لا تُذِلُّوني بعارِ الفَضيحَةِ، ويكونُ الخِزْيُ بمعنى الذُّلِّ، الثّاني: لا تُهْلِكُوني بعواقبِ فَسادِكم، ويكونُ الخِزْيُ بمعنى الهَلاكِ. الثّالث: أنَّ معنى الخِزْيِ ها هنا الاستحياءُ، يقالُ: خَزِيَ الرَّجُلُ؛ إذا استحى"[1].

فالخِزْيُ أخصُّ من الإهانَةِ؛ لأنَّهُ استخفافٌ يُلحِقُ بالإنسانِ الذُّلَّ والانكسارَ أمامَ مَن يقدِّرونَهُ ويحترمونَهُ، أمّا الإهانةُ فتَشْمَلُ ذلك، وتَزيدُ ما يُلحِقُهُ في نفسِه مستورًا عن النّاس.

معنى حرفِ الظَّرفيَّةِ ودلالتُه:

تـوقـيـرُ المُضيفِ أمـــامَ ضَـيـفِـهِ خصيصةُ المتَّقين

استُعْمِلَ حَرْفُ الظَّرفيَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ﴾ للظَّرْفِيَّةِ المَجازِيَّةِ؛ حَيْثُ جَعَلَ الضَّيْفَ كالظَّرْفِ؛ أيْ: لا تَجْعَلُوني مَخْزِيًّا عِنْدَ ضَيْفِي؛ إذْ يَلْحَقُهُمْ أذًى في ضِيافَتِي؛ لِأنَّ الضِّيافَةَ جِوارٌ عِنْدَ رَبِّ المَنْزِلِ، فَإذا لَحِقَتِ الضَّيْفَ إهانَةٌ؛ كانَتْ عارًا عَلَى رَبِّ المَنْزِلِ"[2].

إطلاقُ الضَّيفِ وإرادةُ الأضيافِ:

و"الضَّيفُ هاهنا قائِمٌ مَقامَ الأضْيافِ، كَما قامَ الطِّفْلُ مَقامَ الأطْفالِ"[3]، وذِكْرُ الضَّيفِ لإفادةِ العمومِ والاستغراقِ والإشعارِ بالمعنى الَّذي يستصحبهُ الضَّيفُ من الإكرام، ولو قال: أضيافي، لَتَمَحَّضَ في أشخاصِهم.

(1) الماوردي، النكت والعيون: 2/489.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/128.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/379.

غرضُ الاستفهام:

الاستفهامُ إمّا أن يُحمَلَ على التَّمنِّي أو الإنكارِ أو التَّعجُّبِ

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ محمولٌ على التَّمنِّي أو الإنكارِ والتَّوبيخِ أو التَّعجُّبِ، أمّا التَّمني؛ فحيثُ تمنَّى لوطٌ عليه السلام أن لو كان في قومِه "رَجُلٌ رَشيدٌ ليدفَعَ عن أضيافِه، وقال ذلك تعجُّبًا من اجتماعِهم على المُنْكَرِ"(1)، والرَّجُل الرَّشيدُ "يهتدي إلى الحقِّ الصَّريحِ، ويَرْعَوِي عن الباطلِ القبيحِ"(2)، "فِيهِ خَيْرٌ، يَقْبَلُ ما آمُرُهُ بِهِ، ويَترُكُ ما أنهاهُ"(3).

أو أن يُحمَلَ الاستفهامُ على الإنكارِ والتَّوبيخِ؛ "لِأَنَّ إهانَةَ الضَّيْفِ مَسَبَّةٌ لا يَفْعَلُها إلّا أهْلُ السَّفاهَةِ"(4).

أو أن يكونَ "الاستفهامُ للتَّعجُّبِ، وحَمْلُهُ على الحقيقةِ لا يُناسِبُ المقامَ"(5).

نكتةُ استعمالِ حرفِ (من) دون (في):

الرَّشيدُ المطلوبُ لإيجادِ المفارقةِ واحدٌ

"قَوْلُهُ: ﴿مِنكُمْ﴾ بِمَعْنَى: (بَعْضُكُمْ)، أنْكَرَ عَلَيْهِمْ تَمالُؤَهُمْ عَلَى الباطِلِ وانعدامَ رَجُلٍ رَشِيدٍ مِنْ بَيْنِهِمْ، وهَذا إغْراءٌ لَهُمْ عَلَى التَّعَقُّلِ؛ لِيَظْهَرَ فِيهِمْ مَنْ يَتَفَطَّنُ إلَى فَسادِ ما هُمْ فِيهِ فَيَنْهاهُمْ، فَإنَّ ظُهُورَ الرَّشِيدِ في الفِئَةِ الضّالَّةِ يَفْتَحُ بابَ الرَّشادِ لَهُمْ، وبِالعَكْسِ تَمالُؤُهُمْ عَلَى الباطِلِ يَزِيدُهُمْ ضراوةً بِهِ"(6). وجاء بحرفِ التَّبعيضِ دون الظَّرفيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾؛ لبيانِ أنَّ المطلوبَ واحدٌ لا أكثرُ، ففيهِ همْزٌ لمشاعرِهم لو كانوا من أهلِ الشُّعور!

(1) الماوردي، النكت والعيون: 2/489.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/228.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/337.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/129.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/304.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/129.

غرضُ التَّنكيرِ وسرُّ الوصفِ:

الرَّشيدُ يحقِّقُ توازنَ المجتمعِ وإن كانَ واحدًا

قوله: ﴿رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ "يعني: أنصارًا، وقال ابن عباس: أرادَ الولدَ"(1)، "رَشِيدٌ بِمَعْنَى: مُرْشِدٍ؛ أيْ: يَقُولُ الحَقَّ، ويَرُدُّ هَؤُلاءِ الأوْباشَ عَنْ أضْيافِي. أو بِمَعْنَى: مُرْشَدٍ، والمَعْنَى: أليْسَ فِيكُمْ رَجُلٌ أرْشَدَهُ اللّه تعالى إلَى الصَّلاحِ، وأسْعَدَهُ بِالسَّدادِ والرَّشادِ حَتَّى يَمْنَعَ عَنْ هَذا العَمَلِ القَبِيحِ، والأوَّلُ أوْلَى"(2)، أو المعنى: "رجلٌ واحدٌ يهتدي إلى سبيلِ الحقِّ وفِعْلِ الجَميلِ، والكفِّ عن السُّوءِ"(3).

فغَرَضُ التَّنكيرِ هو تعظيمُ هذا الرَّجلِ وإبهامُهُ، بقطْعِ النَّظرِ عن أصْلِهِ أو انتمائِهِ، وخصَّهَ بصفَةِ رشيدٍ؛ لأنَّ المطلوبَ في هذا الموقفِ الرُّشْدُ، فقد يكون تقيًّا لكنَّه ضعيفٌ، بخلافِ الرَّشيدِ، فهو صاحِبُ حكمةٍ وقوَّةٍ.

عِلَّةُ الفَصْلِ:

"فُصِلَتْ جُمْلَةُ ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ عَنِ الَّتِي قَبْلَها لِوُقُوعِها مَوْقِعَ المُحاوَرَةِ مَعَ لُوطٍ عليه السلام"(4)؛ أي: فُصِلَت للاستئناف البيانيِّ؛ لأنَّها بمنْزِلَةِ جوابِ سؤالٍ عن ردِّهم على عرْضِ لوطٍ عليه السلام عليهم؟ فيأتي الجوابُ: ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ﴾.

غرضُ التَّوكيدِ:

استعمالُ الخبرِ في لازمِ الفائدةِ لبيانِ إصرارِ الفُجّارِ

لا يوجدُ كلامٌ - فيه من المسكنَةِ والملاطفَةِ والانكسارِ ليُقالَ لفاسقٍ مُتسلِّطٍ - أشقُّ على نفوسِ الرِّجالِ من قولِه عليه السلام لقومه: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ﴾، ولا أخسُّ من ردِّهم عليه بصفاقةٍ حين قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾.

و"في تصديرِ كلامهم باللّام المؤذِنةِ بأنَّ ما بعدَها جوابُ القَسم؛

(1) الماوردي، النكت والعيون: 2/490.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/380.
(3) الزمخشري، الكشّاف: 2/414.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/129.

أي: واللّه لقد علمْتَ إشارةٌ إلى أنَّه كان واثقًا وجازمًا بعدم رغبتهم فيهنَّ"[1]. والقسمُ توكيدٌ، فالقومُ مُصِرُّونَ على تنفيذ جريمتهم النَّكراء، "فَأُكِّدَ بِتَنْزِيلِهِ مَنْزِلَةَ مَنْ يُنْكِرُ أَنَّهُ يَعْلَمُ؛ لِأَنَّ حالَهُ فِي عَرْضِهِ بَناتِهِ عَلَيْهِمْ كَحالِ مَنْ لا يَعْلَمُ خُلُقَهُمْ، وكَذَلِكَ التَّوْكِيدُ فِي ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾، وكِلا الخَبَرَيْنِ مُسْتَعْمَلٌ فِي لازِمِ فائِدَةِ الخَبَرِ؛ أيْ: نَحْنُ نَعْلَمُ أنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ ما لَنا رَغْبَةٌ فِي بَناتِكَ، وإنَّكَ تَعْلَمُ مُرادَنا"[2].

دلالةُ استعمالِ لفظِ العلم مادَّةً وصيغةً:

التَّذكيرُ بعلْمِهم لبيانِ إصرارِهم على طَلَبِهم

دلَّ استعمالُ (عَلِم) في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ بالفعلِ الماضي على وجودِ العِلم سابقًا، وهم يذكِّرونَهُ بإصرارِهم المتكرِّرِ، كأنَّهم قالوا: لا تَعُدْ لِنَهْيِنا عن أمرٍ لا مناصَ منهُ عندنا، وهذا في غايةِ الوقاحَةِ والكِبْرِ والغَطْرَسَةِ في مخالفةِ الفطرةِ والدِّين والأخلاقِ والعنادِ عليها.

معنى ﴿مَا﴾ في الآيةِ:

"﴿مَا﴾ الأُولَى ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا﴾ نافِيَةٌ مُعَلِّقَةٌ لِفِعْلِ العِلْمِ عَنِ العَمَلِ، فجاءت ﴿مَا﴾ لنفي رغبةِ قوم لوطٍ ﷺ في طريق الطُّهرِ والسُّلوكِ القويم في الحياةِ، فيما يتعلَّقُ بجانبِ الوطْءِ.

دلالةُ الإضافةِ:

تمامُ الاستغناءِ عن أمرِ اللهِ كمالٌ في استنزالِ عقوبتِهِ

أضافَ الفُسّاقُ البناتِ إلى لوطٍ ﷺ في مقابلةِ إضافتِهِ هو إيّاهنَّ إليهِ حينَ قال: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾، فقالوا: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ﴾، وفي ذلكَ من التَّهكُّم والصَّفاقةِ ما فيهِ، وهو كنايةٌ عن سوءِ أدبِهم مع نبيٍّ يدعوهم إلى الطُّهْرِ والفضيلةِ، فلسانُ حالِهم يقول: بناتُك لكَ، ولا حاجةَ لنا بهنَّ.

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 6/120.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/129.

بلاغةُ الكنايةِ:

طبائعُ الصّالحين تُنافِرُ طبائعَ الفاسقين

يريدُ القومُ في قولهم: ﴿مِنْ حَقٍّ﴾ "أنَّكَ دَعَوْتَنا إلَى نِكاحِهِنَّ بِشَرْطِ الإيمانِ، ونَحْنُ لا نُجِيبُكَ إلَى ذَلِكَ، فَلا يَكُونُ لَنا فِيهِنَّ حَقٌّ"[1]، أو "المرادُ بالحقِّ هنا الرَّغبةُ والشَّهوةُ"[2]، وذلك الرَّدُّ "يدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّهم قد بلغوا النِّهايةَ في الخُبْثِ والوقاحةِ وتَبَلُّدِ الشُّعورِ"[3]، ففيه كِنايةٌ بليغةٌ عن زُهدِهم التامِّ وعدم تعلُّقِهم البتَّةَ بجنسِ النِّساء، و"الحَقُّ... أُطْلِقَ هُنا كِنايَةً عَنْ عَدَمِ التَّعَلُّقِ بِالشَّيْءِ وعَنِ التَّجافي عَنْهُ، وهُو إطْلاقٌ لَمْ أرَ مثلَهُ، وقد تحيَّرَ المُفَسِّرُونَ في تَقْرِيرِهِ، والمَعْنَى: ما لَنا في بَناتِكَ رَغْبَةٌ"[4].

"وقيل: لما اتَّخذوا إتْيانَ الذُّكْرانِ مَذْهبًا ودينًا لتواطُئِهم عليهِ؛ كان عندَهُم أنَّه هو الحقُّ، وأنَّ نكاحَ الإناثِ منَ الباطِلِ، فلذلك قالوا: ما لَنا في بناتِكَ من حقٍّ قَطُّ؛ لأنَّ نِكاحَ الإناثِ أمرٌ خارِجٌ من مذهَبِنا الَّذي نحنُ عليهِ، ويجوزُ أن يقولوهُ على وجهِ الخَلاعَةِ"[5].

بلاغةُ عَطْفِ الجملِ:

المسلِمُ نافِذُ الرُّؤيَةِ، يَعلمُ أخْلاقَ النّاسِ عَلى طَبيعَتِها

عَطَفَ القومُ جملةَ ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ﴾، وهي مُقَرِّرَةٌ لمضمونِ الجملةِ الأولى ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ﴾؛ لأنَّ كلتيهما تُقرِّرانِ عِلْمَهُ بشيءٍ، فالأولى تقرِّرُ علمَهُ بتمام زُهْدِهم في النِّساء، والثّانيةُ تقرِّرُ عِلْمَهُ بتمام رغبَتِهم في الفَحْشاءِ، والأُولى تَقرِّرُ علمَهُ السّابقَ، والثّانيةُ تقرِّرُ علمَهُ الحاليَّ، وبذلك يقطَعونَ عَليهِ طريقَ المحاولَةِ، ويؤكِّدونَ لَهُ إصرارَهُم عَلى المُضِيِّ في وجهتِهِم المقيتةِ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/380.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/249.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/250.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/130.
(5) الزمخشري، الكشّاف: 2/411.

غرَضُ التَّوكيدِ:

التَّوكيدُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ يهدفُ إلى تَثبيطِ عزيمتِه ﷺ وثنْيِه عن نُصْحِهم، إذِ النُّصْحُ ثقيلٌ عليهم، ولا يودُّون أن يَسمَعوهُ أصْلًا، فَأكَّدوا بإنَّ، واسميَّةِ الجملةِ، ولام التَّوكيدِ، وصيغةِ المضارعةِ الَّتي تُفيدُ حضورَ عِلمِه ﷺ بفضائِحهم الماضيةِ، وكمالَ علمِه بما يريدونَ الآنَ.

الفاجِرُ لا يَرْعَوي عن أن يجاهِرَ بفُجورِهِ

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتُها:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ "مفعولٌ لـ﴿لَتَعْلَمُ﴾، وهو بمعنى تعرِفُ، وهي موصولةٌ، والعائدُ محذوفٌ؛ أي: الَّذي نريدُه، وقيل: إنَّها مصدريَّةٌ، فلا حذْفَ؛ أي: إرادتُنا، وجُوِّزَ أن تكونَ استفهاميَّةً وقعتْ مفعولًا لـ ﴿نُرِيدُ﴾ وهي حينئذٍ معلَّقةٌ ﴿لَتَعْلَمُ﴾"[1].

(مـا) بمعنى الموصوليَّةِ كنايةٌ عن طلبِ الفعلِ الشَّنيعِ

وفي حَمْلِها على الاسم الموصولِ، فهي كِنايةٌ عن فِعلتِهم الشَّنيعةِ؛ أي: إنَّك تعلمُ جيِّدًا رغبتَنا في "نكاحِ الذُّكورِ"[2]، وأنَّنا "لَيْسَ لَنا غَرَضٌ إلّا في الذُّكورِ، وأنْتَ تَعْلَمُ ذَلِكَ، فَأيُّ حاجَةٍ في تَكْرارِ القَوْلِ عَلَيْنا في ذَلِكَ؟"[3].

نكتَةُ استعمالِ المضارعِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ مضارعانِ هما فعلُ: ﴿لَتَعْلَمُ﴾، وفعلُ: ﴿نُرِيدُ﴾، فهو يعلم علمًا مستمرًّا متجدِّدًا برغبتِهم فيما يريدونَهُ، وهم يريدونَ الفاحِشَةَ بعِنادٍ وإصرارٍ متجدِّدٍ، فهم يَسْعَونَ إليه الآنَ، ويجدِّدونَ الهِمَّةَ والطَّلبَ والرَّغبةَ فيهِ، فالفعلُ المضارعُ يُصَوِّرُ حالةَ العِنادِ على أخْذِ ما يُريدونَهُ.

الـفُـسّـاقُ لا يَـفـتُرونَ عن فِـسْـقِـهـم، فـالـصّـالـحـونَ أوْلَى بالدِّفاعِ عن حَقِّهِم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/304.
(2) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 1/375.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/338.

غرَضُ استعمالِ ﴿لَوْ﴾:

استُعْمِلَت (لو) في تمنِّي وجودِ قـوَّةٍ مانِعَةٍ من إقـدامِـهـم على الفُحْشِ

﴿لَوْ﴾ حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ؛ أي: إنَّ كفَّهُ ﷺ إيّاهم ممتنِعٌ لامتناعِ العُزوةِ والرُّكنِ الشَّديدِ منَ البَشَرِ، وإلّا ففي ظَهْرِه القُوَّةُ القاهرةُ والجبروتُ المُهلِكُ الَّذي أهلكَهم فعلًا.

فـ﴿لَوْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ تُقَرِّرُ غيابَ النَّصيرِ من الأهلِ وعدمِ العُزوةِ الَّتي تَنصرهُ، وتردُّ فُحشَ هؤلاءِ بكفِّهم عن الفاحِشَةِ، وما أقساها تلك اللَّحظاتُ من لحظاتٍ يشعرُ فيها الرِّجالُ بالعَجْزِ أمامَ الأوباشِ الفاسقين، فـ "لَوْ مُسْتَعْمَلَةٌ في التَّمَنِّي، وهَذا أقْصَى ما أمْكَنَهُ في تَغْيِيرِ هَذا المُنْكَرِ"(1)، وقد قالَ ما قال: "على جِهةِ التَّفَجُّعِ والاستكانةِ"(2)، فلمّا "شاهَدَ سَفاهَةَ القَوْمِ وإقْدامَهُمْ عَلَى سُوءِ الأدَبِ؛ تَمَنَّى حُصُولَ قُوَّةٍ قَوِيَّةٍ عَلَى الدَّفْعِ"(3).

بلاغةُ حذْفِ جوابِ ﴿لَوْ﴾:

ما كتَمَهُ ﷺ من الحَسْرَةِ أكْبرُ من الكلامِ الظّاهِرِ

جَوابُ ﴿لَوْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ مَحْذُوفٌ، وقد دلَّ عليه الكلامُ، والتَّقْديرُ: لَمَنَعْتُكُمْ ولَبالَغْتُ في دَفْعِكُمْ، و"لَكُنْتُ نَكَّلْتُ بِكُمْ، وفَعَلْتُ بِكُمُ الأفاعِيلَ منَ العَذابِ، والنِّقْمَةِ، وإحْلالِ البَأْسِ بِكُمْ بِنَفْسِي وعَشِيرَتِي"(4)، ونظيرُ ذلكَ "قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ [الرّعد: 31] يعني: لو أنَّ لي بكم قوَّةً؛ لفعلْتُ بِكُم وصنعْتُ"(5). و"حذْفُ مثلِ هذا أبلغُ؛ لأنَّه يدعُ السّامعين ينتهي إلى أبعدِ تخيُّلاتِه، والمعنى: لفعلْتُ كذا وكذا"(6)، فالحذْفُ يدلُّ على ما كتَمَهُ ﷺ وأنَّ في نفسِه من الحسْرَةِ على واقعِ قومِه ما يتمنَّى معهُ اتِّخاذَ التَّدابيرِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/130.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/195.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/381.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/338.
(5) الزمخشري، الكشّاف: 2/415.
(6) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/195.

المانعَةِ بالقوَّةِ، وهذا دليلٌ على أنَّ قومَهُ بلغوا مبلغًا من الجَسارةِ على الباطِلِ، ما لا قِبَل لأحدٍ به.

فائدةُ التَّقديم والتَّأخيرِ:

جاء ترتيبُ الجملةِ في قولِه تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ على تقديم قيْدَيْنِ هما: ﴿لِي﴾ و﴿بِكُمْ﴾، على المسندِ إليه ﴿قُوَّةً﴾.

القوَّةُ أداةٌ موصِلةٌ للغاياتِ الحميدةِ

وتقديمُ هذين القيدَين يكشِفُ عن العنايةِ بدلالتِهما، فقدَّمَ أوَّلًا القيدَ ﴿لِي﴾ لتعلُّقِ نفسِه بما يعنيه، وما ينصرهُ، ويكونُ (له) عليهم، ثُمَّ أُلحقَ بالقيدِ ﴿بِكُمْ﴾ أي: بِرَدِّكم وكفِّكُم عن جريمتِكم؛ لأنَّه المطلبُ المهمُّ.

ثم يجيءُ المسندُ إليه ﴿قُوَّةً﴾، وتأتي القوَّةُ بمنزلةِ الخاتم الَّذي يَقهرُهم، فلم يُقدِّم القوَّةَ، باعتبارِها أداةً موصِلَةً لِثَني قومِه عَنِ الباطِلِ، لا غايةً مطلوبةً لذاتِها، وقد أتى كلُّ ذلك منه ﷺ على سبيل التَّمنِّي العاجِزِ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلّا باللّه العليِّ العظيم.

معنى حرفِ الباءِ:

حَمْلُ الحروفِ على معانيها الظّاهرةِ أليقُ بالبلاغةِ من القولِ بالتَّناوبِ

ذهبَ ابنُ عاشورٍ - رحمه اللّه - إلى القولِ بالتَّناوبِ، وجعلَ الباءَ في قولِه تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ في معنى الاستعلاءِ، فقال: "الباءُ في ﴿بِكُمْ﴾ للاسْتِعْلاءِ؛ أيْ: عَلَيْكُمْ، يُقالُ: ما لي بِهِ قُوَّةٌ، وما لي بِهِ طاقَةٌ، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ﴾ [البَقَرَة: 249]. ويَقُولُونَ: ما لي بِهَذا الأمْرِ يَدانِ؛ أيْ: قُدْرَةٌ أوْ حِيلَةٌ عَلَيْهِ، والمَعْنَى: لَيْتَ لِي قُوَّةً أدْفَعُكُمْ بِها، ويُرِيدُ بِذَلِكَ قُوَّةَ أنْصارٍ؛ لِأنَّهُ كانَ غَرِيبًا بَيْنَهُمْ"[1].

والقولُ بالتَّناوبِ خلافُ مذهبِ المحقِّقين، و﴿بِكُمْ﴾ متعلِّقةٌ بمحذوفِ حالٍ من ﴿قُوَّةً﴾؛ لأنَّه صِفةٌ متقدِّمةٌ، فتُعرَبُ حالًا، ولو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/130.

حَمَلْناها على معنى السَّببيَّةِ؛ لاستقامَ المعنى؛ أي: إنَّ لوطًا ﷺ يتمنَّى أن يمتَلِكَ قوَّةً بسببِ أفعالِهم الشَّنيعةِ، وهو يُخاطبُهم بذلك، وفيه معنى اللَّوم؛ أي: ما تمنَّيتُ ذلك إلّا بسببِ ما بَلَغْتُمُوهُ من الفُحْشِ، وهذا أليقُ بالسِّياقِ؛ إذ إنَّ تَمنِّيه لامتلاكِ القوَّةِ لم يكن إلّا بسببِ ما أرادوا اقترافَهُ من الفاحشَةِ في حقِّ ضيفِهِ.

وقولُ لوطٍ ﷺ ذلك "يَدُلُّ عَلَى أنَّهُ كانَ في غايَةِ القَلَقِ والحُزْنِ بِسَبَبِ إقْدام أُولَئِكَ الأوْباشِ عَلَى ما يُوجِبُ الفَضيحَةَ في حَقِّ أضْيافِه، فَلَمّا رَأتِ المَلائِكَةُ تِلْكَ الحالَةَ؛ بَشَّرُوهُ بِأنْواعٍ منَ البِشاراتِ: أحَدُها: أنَّهُمْ رُسُلُ اللّه. وثانيها: أنَّ الكُفّارَ لا يَصِلُونَ إلَى ما هَمُّوا بِهِ. وثالِثُها: أنَّهُ تعالى يُهْلِكُهُمْ. ورابِعُها: أنَّهُ تعالى يُنَجِّيهِ مَعَ أهْلِهِ منْ ذَلِكَ العَذابِ. وخامسُها: أنَّ رُكْنَكَ شَديدٌ، وإنَّ ناصِرَكَ هُو اللّه تعالى فَحَصَلَ لَهُ هَذِهِ البِشاراتُ"[1].

دلالةُ العطفِ بحرف ﴿أَوْ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ هو الأمنيةُ الثانيةُ لنبيِّ اللّه لوطٍ ﷺ إذ لم تتحقَّقِ الأولى، وهي القدرةُ على كَبْحِ جِماحِ قومه، فيتَمَنَّى أن لو كانَ لَهُ مكانٌ قويٌّ حصينٌ يتحصَّنُ فيه منهم، ويأوي إليه، يقول: "أعْتَصِمُ بِما فِيهِ مَنَعَةٌ؛ أيْ: بِمَكانٍ أوْ ذِي سُلْطانٍ يَمْنَعُنِي مِنْكُمْ"[2].

جِـرْصُ الـدّاعـي عـلـى تـحـقـيـقِ الغاياتِ بقَطْعِ الـنَّـظَـرِ عـن نـوعِ الـوسـيـلـةِ الشَّرعيَّة

وفي تعيينِ المعطوفِ عليهِ بحرف ﴿أَوْ﴾ أقوالٌ، وهي الآتية:

الأوَّل: يجوزُ أن يكونَ معطوفًا على المعنى، تقديره: أو أنِّي آوي.

الثّاني: يجوز أن يكونَ معطوفًا على ﴿قُوَّةً﴾؛ لأنَّهُ منصوبٌ في الأصلِ بإضمار (أن)، فلمّا حُذِفَتْ (أن)؛ رُفِعَ الفعلُ، كقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ﴾ [الروم: 24].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/381.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/130.

الثّالث: يجوز أن يكونَ عَطْفُ هذه الجملةِ الفعليَّةِ على مثْلِها إن قدَّرْتَ أنَّ "أنَّ" مرفوعةٌ بفعلٍ مُقَدَّرٍ بعد (لو) عند المبرِّدِ، والتقديرُ: لو يستقرُّ أو يَثْبُتُ استقرارُ القوَّةِ أو آوي، ويكون هذان الفعلانِ ماضيَي المعنى؛ لأنَّها تَقلِبُ المضارعَ إلى المضيِّ، وأمّا على رأي سيبويهِ في كونِ "أنَّ" في محلِّ الابتداءِ، فيكون هذا مستأنفًا.

الرّابع: قيل: ﴿أَوۡ﴾ بمعنى: بل، وهذا عندَ الكوفيِّين[1].

ودلالةُ استعمالِ ﴿أَوۡ﴾ هو بيانُ شديدِ تمسُّك لوطٍ عليه السلام بمطلبٍ يُعينهُ على بلوغِ المرام في تخليصِ ضيفهِ من الوقوعِ في البلاءِ، فـ(أو) معناها التَّنويعُ، فهو متعلِّقٌ بأيِّ سبيلٍ يوصلُهُ إلى المقصودِ.

دلالةُ تعديةِ فعلِ الإيواءِ بحرفِ (إلى):

جاء استعمالُ حرفِ انتهاءِ الغايةِ ﴿إِلَىٰ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾؛ لبيانِ أنَّ مطلبَ الإيواءِ الذي تمنّاه لوطٌ عليه السلام فيه معنى الالتجاءِ من الحالِ الَّتي وصلَ إليها، في معاناةِ قَومه ومكابدَتِهم لتركِ ما هم فيهِ من الغيِّ والانهماكِ وراءَ الشَّهواتِ، فهو يبحثُ عن منقذٍ جديرٍ بإنقاذِهِ، وفي ذلك تلويحٌ وإيماءٌ بدعائهِ ضمنًا أن ينقذَهُ اللّه منهم، لكنَّ رحمتَهُ غلبَت على لسانهِ، فقبضتْهُ عن أن ينطقَ بإنزالِ العذابِ، وهو يعلمُ أنَّ الرَّكنَ الشَّديدَ حاضرٌ، لكنَّهُ يخشى أن يُصيبَهُم بمكروهٍ، ففيه من عظيم الرَّحمَةِ ما يحتاجُهُ دعاةُ الإسلام في كلِّ زمانٍ أن يمتثلوهُ مع العُصاةِ المخالفين، وألّا يُبادِروا إلى استعداءِ النّاسِ، ولو كانوا عتاةَ الكفرِ، فاللّه أمرَ نبيَّنا ﷺ أن يهتديَ بأولئك النَّبيِّين.

رحمةُ نبيِّ الله لوطٍ عليه السلام غلبَت لسانَهُ أن يدعو على قومهِ

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة:

في قوله تعالى: ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ استعارةٌ، والمعنى: "لو أويتُ إلى قويٍّ أستندُ إليهِ، وأتمَنَّعُ بهِ، فَيحميني منكم، فَشَبَّهَ القويَّ

تشبيهُ العزيزِ بالرُّكنِ دليلُ عزَّتِهِ ونُدْرةِ وجودِهِ بين النّاسِ

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/364.

العزيزَ بالرُّكنِ من الجَبَلِ في شدَّتِه ومَنَعتِه"[1]، وحذفَ المشبَّهَ، وعبَّر في موضعِه بالمشبَّهِ بهِ، فهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ أصليَّةٌ، غرضُها المبالغَةُ في القوَّةِ الرّادعَةِ المُتَمَنّاة.

غرَضُ التَّنكيرِ في استعمالِ مفردةِ ﴿رُكۡنٍ﴾:

وظيفةُ الرُّكنِ في النُّصرةِ أهمُّ من أيِّ اعتبارٍ آخرَ

الرُّكنُ في أصْلِ معناهُ اللُّغويِّ: "النّاحيةُ منَ البيتِ أو الجبلِ، ويُقال: رُكُنٌ بضمِّ الكاف، وقد قُرِئَ بهِ، ويُجْمَعُ على أركانٍ، وأرادَ ﷺ به القويَّ، شبَّهَهُ بـ ﴿رُكۡنٍ﴾ الجبَلِ في شِدَّتِه ومَنَعتِه؛ أي: أو أنضمُّ إلى قويٍّ أتمنَّعُ بهِ عنكم، وأنتصرُ بهِ عَليكم".

وتنكيرُ ﴿رُكۡنٍ﴾ للتَّفخيم والتَّعظيم، وهو يوحي بفقدانِ لوطٍ ﷺ كلَّ حمايةٍ من البشرِ، ويكشِفُ عن أمنيتِهِ في أن يجدَ ركنًا ركينًا يَرْكَنُ إليه، ويستَنِدُ عليه، ويتقوَّى بهِ في الملمّاتِ بِقَطعِ النَّظرِ عن أيِّ اعتبارٍ، وعبَّرَ بالـ ﴿رُكۡنٍ﴾؛ لأنَّهُ أقوى موضعٍ في البِناءِ؛ لما فيهِ من زاويةٍ يلتقي عندها الجدارانِ، يسندُ كلٌّ منهما الآخرَ، ويشدُّ بعضُهما بعضًا من خلالِه.

سرُّ اختيارِ صِفَةِ ﴿شَدِيدٖ﴾ دونَ مرادِفاتِها:

اتِّخاذُ المسلمِ عُزوتَهُ رُكنًا يتحصَّنُ بهِ لا يُنافي كَمالَ الإيمانِ

وُصِفَ الرُّكنُ بالشَّديدِ، وهو ما يزيدُ قوَّتَهُ قوَّةً، وذلك يعكسُ شدَّةَ المرارةِ الَّتي يتجرَّعُها لوطٌ ﷺ في هذه اللَّحظاتِ، إنَّها عباراتٌ مُليِّنةٌ لأصلدِ القلوبِ، وهو يريدُ من تمنِّيهِ في وجودِ الرُّكنِ الشَّديدِ "منعةً عاجلةً يمنعُ بها قومَهُ ممّا هم عليه منَ الفواحِشِ، من قرابةٍ أو عشيرةٍ أو أتباعٍ مؤمنين، وما جَهِلَ قطُّ لوطٌ ﷺ أنَّه يأوي من ربِّهِ تعالى إلى أمنعِ قوَّةٍ، وأشدِّ ﴿رُكۡنٍ﴾. ولا جناحَ على لُوطٍ ﷺ في طلبِ قوَّةٍ منَ النّاسِ، فقد قالَ تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [البقرة: 251]، فهذا الَّذي طلبَ لوطٌ ﷺ.

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/415.

وقد طلبَ رسولُ اللّه ﷺ من الأنصارِ والمهاجرين مَنْعَهُ حتَّى يُبَلِّغَ كلامَ ربِّهِ تعالى فكيف يُنْكِرُ على لوطٍ عليه السلام أمرًا هو فعلَهُ عليه السلام؟ تاللّه! ما أنكر ذلك رسولُ اللّه ﷺ وإنَّما أخبرَ أنَّ لوطًا «كان يأوي إلى ركنٍ شديدٍ».

يعني: مَن نصرَ اللّه له بالملائكةِ، ولم يكن لِلوطٍ عِلْمٌ بذلكَ، ومَن اعتقدَ أنَّ لوطًا كان يعتقدُ أنَّه ليس له منَ اللّه ركنٌ شَديدٌ، فقدْ كفرَ، إذ نَسبَ إلى نبيٍّ منَ الأنبياءِ هذا الكفرَ، وهذا أيضا ظنٌّ سخيفٌ؛ إذ من المُمتنِعِ أن يظنَّ بربٍّ أراهُ المعجزاتِ، وهو - دائبًا - يدعو إليه؛ هذا الظَّنَّ"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الهَرعُ والهَرولةُ:

الـهَـرَعُ مرتبِطٌ باضطرابٍ داخليٍّ بخلافِ الهرولةِ فهي سيرٌ حثيثٌ

"الهَرْولَةُ: بَيْنَ العَدْوِ والمَشْيِ، وقِيلَ: الهَرْولَةُ بَعْدَ العَنَقِ، وقِيلَ: الهَرْولَةُ الإسراعُ... وفي الحَدِيثِ: «مَن أتاني يَمْشِي أتَيْتهُ هَرْولَةً»، وهُو كِنايَةٌ عَنْ سُرْعَةِ إجابةِ اللّه ﷻ وقَبُولِ تَوْبَةِ العَبْدِ ولُطْفِه ورَحْمَتِه... وقِيلَ: الهَرْولَةُ فَوْقَ المَشْيِ ودُونَ الخَبَبِ، والخَبَبُ دُونَ العَدْوِ"[2].

وأُهْرِعَ الرَّجُلُ: خَفَّ وأُزْعِدَ منْ سُرْعةٍ أو خَوْفٍ أو حِرْصٍ أو غَضَبٍ أو حُمَّى، وفي التَّنْزِيلِ: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود: 78]، قالَ أبو عُبَيْدَةَ: يُسْتَحَثُّون إليه، كأنه يَحُثُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. وتَهَرَّعَ إليه: عَجِلَ"[3]، و"المَهْروعُ: المَجْنونُ يُصْرَعُ، والمَصْروعُ من الجَهْدِ... وأهْرَعَ: أسْرَعَ"[4].

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 6/120.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (هرول).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (هرع).
(4) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (هرع).

العَملُ والفِعلُ:

"العَملُ: إيجادُ الأثرِ في الشَّيءِ، يقال: فلانٌ يعملُ الطِّينَ خَزفًا، ويعملُ الخوصَ زَنبيلًا، والأديمَ سِقاءً، ولا يقالُ: يفعَلُ ذلك، فالفعلُ: عبارةٌ عمّا وُجِدَ في حالٍ كان قبلَها مقدورًا سواءٌ كان عن سببٍ أو لا[1]، وقال الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: 96]؛ أي: خلقَكم، وخلقَ ما تؤثِرونَ فيهِ بِنَحْتِكُم إيّاه أو صَوْغِكُم لَهُ، وأصلُ العملِ في اللُّغةِ الدَّؤوبُ، ومنه سُمِّيَتِ الراحِلةُ يَعْمَلَةً "[2].

الفِعلُ أعمُّ من العَملِ فيفعلُ الحيِّ سُلوكُهُ المعتادُ

العملُ والصُّنعُ:

"الصُّنعُ: ترتيبُ العملِ وإحكامُهُ على ما تقدَّم علمٌ بهِ، وبِما يوصِّلُ إلى المرادِ منهُ، ولِذلكَ قيلَ لِلنَّجّارِ: صانِعٌ، ولا يقالُ للتّاجِرِ: صانِعٌ؛ لأنَّ النَّجّارَ قد سَبَقَ عِلْمُهُ بما يُريدُ عملَهُ من سريرٍ أو بابٍ وبالأسبابِ الَّتي تُوصِّلُ إلى المرادِ من ذَلِكَ، والتّاجِرُ لا يعلم إذا اتَّجَر أنَّه يَصلُ إلى ما يريدُه من الرِّبْحِ أو لا، فالعملُ لا يقتضي العِلمَ بما يعملُ لهُ"[3].

الصُّنعُ أخصُّ من العملِ؛ إذ يختصُّ بالإتقانِ والإحكامِ

السَّيِّئاتُ والفواحِشُ:

"السَّيِّئَةُ: الفِعْلَةُ القَبيحَةُ، وهيَ ضِدُّ الحَسَنَةِ، قالَ: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ [البقرة: 81]... وقال ﷺ: «يا أنسُ أتبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُها»"[4]، و"الفاحِشَةُ: ما عظُمَ قُبحُهُ من الأفعالِ والأقوالِ... وفَحُشَ فلانٌ: صارَ فاحشًا... والمُتَفَحِّشُ: الَّذي يأتي بالفُحْشِ"[5].

السَّيِّئاتُ أعمُّ من الفواحِشِ فَهي تُطلَقُ على الصَّغائِرِ والكبائِرِ

فالسَّيِّئاتُ أعمُّ من الفواحشِ لاسيَّما في الاستعمالِ العُرفيِّ، وتُطْلَقُ على الصَّغائِرِ والكبائِرِ، بخلافِ الفواحِشِ، فهي تُطْلَقُ على الكبائِرِ المرتبطةِ بالأخلاقِ الخَسيسةِ.

---

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللغويّة، ص: 408.
(2) العسكريّ، معجم الفروق اللغويّة، ص: 377.
(3) العسكريّ، معجم الفروق اللغويّة، ص: 321.
(4) الراغب، المفردات: (ساء).
(5) الراغب، المفردات: (فحش).

القدرةُ والقوَّةُ:

القوَّةُ قدرةٌ كامنةٌ، والقُدرةُ قوَّةٌ تنفيذيَّةٌ

"القدرةُ: كَوْنُ الحيِّ بحيثُ إن شاءَ فعلَ، وإن شاءَ تركَ، والقوَّةُ: هي المعنى الَّذي يتمكَّنُ بِها الحيُّ من مُزاولَةِ الأفعال الشّاقَّةِ"[1]. فالقوَّةُ هي الطّاقةُ والإرادةُ الَّتي يمتلكُها الحيُّ، والقدرةُ الجانبُ التَّنفيذيُّ على إيجادِ القوَّةِ واقعًا.

الخِزْيُ والإهانةُ:

الإهانةُ أعمُّ من الخِزي، فإنَّ "الإنسانَ قد تهونُ عليهِ نفسُه، ويُقبِلُ على العملِ السَّيِّئ ما لم يرَهُ أحدٌ، أمّا أن يراه النّاسُ؛ ففي هذا فضْحٌ لهُ، فـ الخِزْيُ والفضيحةُ تكونُ بين جمهرةِ النّاسِ، والهوانُ والإهانةُ أن يكونَ العملُ السَّيِّئُ بينَهُ وبينَ نفسِه"[2].

الإهـــانـــةُ إذا انـتـشـرَتْ بين النّاسِ أصبحَتْ خِزيًا

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللغوية، ص: 421.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 11/6579.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك :978-9948-768-18-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي :978-9948-768-18-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»